

نحو استنهاض الأمة في سياق عروبي إسلامي

عصام نعمان(*)

محام وكاتب، نائب وزير سابق.

- ١ -

استنهاض الأمة حاجة استراتيجية. نشوؤها أعقب غزو فرنسا اليونانبرتية لمصر مطلع القرن التاسع عشر. لعلها أصبحت بعد احتلال بريطانيا لمصر العام ١٨٨٢ مطلباً استراتيجياً. استنهاض الأمة، بما هو مسار تاريخي، ليس محدوداً بزمان ومكان. إنه دائم الحضور والتجدد ولاسيما في المنعطفات الإقليمية والدولية المفضية إلى تحولات حادة في موازين القدرات والإرادات.

العرب اليوم في قلب مخاض مرير يتجدد معه وفيه مطلب استنهاض الأمة. الإعلام في الغرب الاطلسي أطلق على التجليات الخارجية للمخاض مصطلح «الربيع العربي». إنه تعبير مجازي. غير أن مجازيته لا تحجب حقيقة ساطعة هي أن الناس كسروا في قلوبهم وممارساتهم حاجز الخوف. طردوا من نفوسهم هيبة السلطة وتحرروا من رهبتها. أسقطوا ألوهية السلطان والسلطة وتمردوا على أصنامها الموروثة. أجل، خرج مارد الشعب من القمقم، ولن يعود إليه أبداً.

إنه مخاض الأمة كلها على امتداد قارتها. مخاض طويل يعتمل في القلوب والعقول، ويتصل بكل مناحي الحياة وقضاياها ومفرداتها، ويتفاعل مع المخاض الأكبر الذي يلف العالم برمته، وينبئ بأن المسكونة تعيش مرحلة تحوّل وانتقال من نظام كوني إلى آخر.

- ٢ -

مخاض الأمة هذا، ما تحدياته الماثلة؟ وما ديناميات مواجهتها؟

أول التحديات تداعي نظام الحياة العربية بما هو أنموذج مركّب من موروثة الشرق العثماني ومكتسبات الغرب الاوروبي بوجهيه الاستعماري والحداثي، الخاضع لهيمنة أمريكية تركّب موجة التكنولوجيا وثورة المعلوماتية والاتصالات، وترتهن بالصهيونية

العالمية. ذلك أن العرب، بعد نحو قرن من انهيار السلطنة العثمانية، وبعد نحو نصف قرن من انحسار الاستعمار الأوروبي، ما زالوا عاجزين عن إقامة نظام إقليمي لرعاية حياة عربية متميزة من العثمانية الإسلامية الذاتية والعلمانية الأوروبية السائدة، كما عجزوا عن بناء دول ديمقراطية حديثة للنهوض والوفاء بمطلبي العدالة والتنمية.

فوق ذلك، عجز العرب عن مواجهة هجمة صهيونية ضارية تمكنت، بدعم الولايات المتحدة والغرب الأطلسي، من السيطرة على فلسطين التاريخية، من البحر إلى النهر، وتجاوزتها إلى احتلال أراضٍ في دول عربية مجاورة وقضمها، وتعاضمت قوتها لدرجة استطاعت معها «إسرائيل» فرض معاهدة صلح على مصر أخرجتها من حومة الصراع العربي - الصهيوني، وحيدت الأردن، وكادت تحيد لبنان، وكُرست لنفسها دور شرطي المنطقة المهدّد بهراوة الأمر الأمريكي.

هزيمة العرب أمام الغرب الأطلسي وربيبه الاستعمار الصهيوني، حفرت عميقاً في الذات العربية التي عاشت وتعيش ظاهرة تاريخية فريدة هي خضوع العرب، أكثر من ألف سنة، إلى حكام أجانب. واذا اختزنت الذات العربية تراث الهزيمة والخضوع المذل طوال قرون وأجيال، فقد كان من الطبيعي للاحتقان المترع بالضغط المتعاظم أن ينفجر، وأن تكون القوى الشبابية العربية هي الصاعق المفجّر للأوضاع الفاسدة المهترئة، وأن تكون هي أيضاً خميرة الثورة وصانعتها في آن.

ثاني التحديات توقّ العرب إلى الحرية والكرامة والنهضة، والمعوقات التي تواجه هذا التوق، داخلياً وخارجياً. صحيح أن انتفاضات الجماهير في تونس ومصر وسائر الأقطار العربية وطنية في منطلقها. لكن الصحيح أيضاً أن الولايات المتحدة سارعت إلى احتواء الموجة التحريرية بمخطط جوهره التضحية برؤوس الأنظمة السياسية الفاسدة بغية المحافظة على أجسامها. هذا ما فعلته في تونس ومصر وليبيا واليمن، وما تسعى إلى تحقيقه في أقطار أخرى.

إلى ذلك، ثمة تحدٍّ يتداخل مع تحدي توق العرب إلى الحرية والكرامة والنهضة. إنه تحدي «إسرائيل» العدوانية التي تواجهها مقاومة عربية ناشطة في فلسطين ولبنان وسورية. مواجهة المقاومة للتحدي الصهيوني تستولد لدى القوى الإصلاحية والديمقراطية في تلك الساحات حساسية خاصة بألوية المقاومة على ما سواها من المهام، وتستدعي بالتالي مقاربة استثنائية لمطالب التغيير والإصلاح والديمقراطية. حيال هذه الإشكالية، لا بد من إيجاد صيغة للحوار الوطني كفيلة بمعالجتها وتجاوزها. غير أن واقع الصراع في سورية وعليها لا يبشّر، حالياً، بوجود مخرج من الأزمة يتيح فرصة للحوار والمصالحة والتوافق على برنامج سياسي متكامل لتحقيق مطالب الحرية والكرامة والديمقراطية والنهضة ولتعزيز خيار المقاومة ونهجها الفاعل والمجزي. المخاض مرشح، إذًا، إلى أن يطول ويتعقد.

ثالث التحديات صعود التيار الإسلامي بفصائله المتعددة والمتنافسة، وما يعكسه الصعود والتنافس من آثار على مجمل الانتفاضات الشعبية في الأقطار العربية من جهة، وعلى سائر القوى المناضلة من أجل الحرية والكرامة والديمقراطية والنهضة من جهة أخرى. ذلك أن بعض الحركات الإسلامية استعجل الاستحواذ على السلطة في تونس ومصر

وذلك بتفاهم ضمنى، على ما يبدو، مع الولايات المتحدة وحلفائها المحليين.

في هذا السياق، تبدو الولايات المتحدة راغبة وساعية إلى ترويج صيغة «إسلام أردوغان» التركية، إن صحَّ التعبير، كبديل من الإسلاميين السلفي والجهادي في الأقطار العربية التي للإسلام الحركي فيها وجود ونفوذ. «إسلام أردوغان» يزاوج بين الدين والديمقراطية (بما في ذلك العلمانية) الأمر الذي يناسب الولايات المتحدة ويغنيها عن التعاون مع الإسلاميين السلفيين أو تغطية تطرفهم، كما يساعدها على تعميمه خياراً منافساً لنظام الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

فوق ذلك، يندلع صراع بين الحركات الإسلامية نفسها، كما بين هذه الحركات والقوى القومية والديمقراطية واليسارية المنخرطة في الانتفاضات الشعبية. هذا الصراع يناسب الولايات المتحدة أيضاً لكونه يساعدها على تسويق سياستها الهادفة إلى تعميم «الفوضى الخلاقة» في العالمين العربي والإسلامي. فما لا تستطيع الحصول عليه بالقوة أو بالسياسة، تعمل كي لا يحصل عليه أحد سواها. من هنا يمكن تفسير حربها على العراق بأنها كانت تعبيراً عن استراتيجية متكاملة لحماية أمن النفط وأمن إسرائيل باحتلال البلد وزرع الفتنة بين مكوناته القومية والدينية والمذهبية، وتركه نهياً للفوضى ونوازع التقسيم والفرقة بعد الانسحاب منه.

رابع التحديات تداعي نظام الرأسمالية المعولة وآثاره في العرب والعالم. لعل الكاتب الأمريكي اليهودي، غير الصهيوني، روجر كوهين أصاب في تشخيص أسباب الأزمة البنيوية التي تعصف بالنظام الرأسمالي العالمي، ولاسيما في أوروبا وأمريكا، بقوله إنه «تفوق المال على السياسة». كيف؟ «مع ظهور قوى جديدة، أحدثت العولمة تحولاً في العلاقات بين رأس المال والعمل لمصلحة الأول، فأصبح هناك عدد أكبر بكثير من العمال الذين يتقاضون أجراً زهيداً خارج الغرب نتيجة إلغاء التكنولوجيا للمسافات، وتبين أن عائدات الرساميل أعلى مقارنة بالأجور. هكذا أصبحت الثغرة بين الأثرياء والفقراء هوةً سحيقة».

الأرقام تروي جانباً من الأزمة. فنسبة البطالة لدى الشباب في دول الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة تزيد على ٢٠ في المئة. واحد من أصل كل خمسة أوروبيين وواحد من أصل كل خمسة أمريكيين يبحث عن عمل. تراجع دول أوروبا وأمريكا الناجم عن أزمته المالية والاقتصادية سيؤدي إلى تقليص قدرتها على الوفاء بالتزاماتها الخارجية. هذا سيؤدي بدوره إلى تقليص وجودها ونفوذها ما وراء البحار، ويؤدي تالياً إلى انسحابها عسكرياً، ومن ثم سياسياً، من المنطقة ولاسيما من أفغانستان وباكستان بعدما انسحبت من العراق. ويختصر روجر كوهين في صحيفة **نيويورك تايمز** مسار انحدار الغرب بقوله: «ها هي الإمبراطورية الأمريكية، أو بشكل عام سلطان الغرب، ينتهي ليس بسرعة إنما ببطء».

خامس التحديات ثورة إلكترونية في عالم الاتصال والتواصل والمواصلات والمعلوماتية باتت معها المسافات مجرد حالة ذهنية، وقد انعكست بفعالية مذهلة على مختلف ميادين الحياة، ولا سيما على أسواق المال والتجارة والمصارف والإعلام والثقافة، كما على السياسة والتجسس والحرب والمقاومة المدنية والميدانية. ولعل مشروع استنهاض الأمة يتأثر بالثورة الإلكترونية، أكثر ما يكون، في ميادين أربعة: الثقافة، الإعلام، السياسة، والمقاومة. ذلك أن ثمة ثقافة إسلامية، أو لعلها إسلاموية، تسود السواد الأعظم في الأمة، الأمر الذي يمكن أهل القرار، كما أهل الفعل،

من استخدام أدوات الاتصال والتواصل والإعلام في مختلف وجوه التوعية والتعبئة والإثارة والتثوير. كل ذلك ينعكس بدوره على السياسة، تفكيراً وتديراً، كما على المقاومة بكل وجوهها ومتطلباتها ومشاهدها وشهودها وفعاليتها وإنجازاتها وأهدافها القريبة والبعيدة.

- ٣ -

من واقع هذه التحديات الخمسة الرئيسية تتوجب مهام خمس أساسية:

أولى المهام استنهاض الأمة، وليس استنهاض التيار القومي العربي أو التيار الإسلامي أو أي تيار آخر. فالتحديات التي تواجهنا تمسّ الأمة جمعاء بكل أفرادها وجماعاتها ومؤسساتها وأحزابها وفعاليات حياتها. وإذا كان أفراد وجماعات ونوازع وفعاليات لا تشعر بأنها معنية بما يواجه الأمة من تحديات وأزمات، أو لا ترغب في أن تكون منخرطة في مجهود جماعي لمواجهة، فإن المؤمنين بأن التحديات سالفة الذكر تمسّ الأمة جمعاء، وبأنهم معنيون بمواجهتها مطالبون بالتزام واجب الانخراط في المجهود المناسب لتحقيق الأهداف المرجاة.

في هذا السياق، يقتضي وعي وإدراك التعددية التي ينطوي عليها الاجتماع السياسي والحضاري العربي من حيث وجود أقوام وإثنيات وطوائف ومذاهب ولغات وثقافات متنوعة في القارة العربية. لذلك فإن اعتماد مقولة القومية كأيديولوجيا يفضي إلى نمط من الحصرية والعنصرية إذ تصبح معه القومية عقيدة قوم أو جماعة من الناس تعتنقها وتنادي بها من دون سائر الأقوام والإثنيات والجماعات والطوائف. والحال أن العروبة، بما هي هوية جامعة نابعة من لغة غالبية الأمة ومن انتماء إلى رقعة جغرافية يحمل اسمها الهوية ذاتها، تُشكّل رابطة قابلة لاحتضان المشتركات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية القائمة بين تلك الأقوام والإثنيات والطوائف والمذاهب والثقافات.

يساعد اعتماد «العروبة» هوية جامعة بدلاً من «القومية العربية»، و«العربي» كصفة للمواطن بدلاً من تعبير «القومي العربي» الذي يوحي بالحصرية وحتى بالعنصرية، و«التيار العربي» بدلاً من «التيار القومي العربي»، يساعد ذلك كله في اختيار الاتحادية (الفدرالية) كنظام سياسي يحقق مبدأ «التنوع في إطار الوحدة»، فلا يكون التعدد طريقاً لإفساد التوحد، بل يكون التنوع في الأمة مصدر إثراء وإبداع.

ثانية المهام التعاطي بإيجابية مع صعود الإسلام الحركي (الرايديكالي) عموماً، والإخوان المسلمين خصوصاً، في مختلف الأقطار العربية، ونجاحهم في الوصول إلى السلطة في تونس ومصر. وما كان الإسلام الحركي ليتصدر الحركات الشعبية العربية لولا أن الثقافة السائدة في الاجتماع السياسي العربي هي ثقافة إسلامية أو إسلاموية تستجيب لمفردات الخطاب «الإخواني» وأمثاله. وإذا اكتسب ويكتسب الإسلام الحركي والإسلاميون قدرات وازنة في شتى أنحاء القارة العربية، فقد بات من غير الممكن، إن لم يكن من المستحيل، السير في مشروع استنهاض الأمة بمعزل عن هذا التيار أو في مواجهته.

إلى ذلك، فإن «يقظة» الأقوام والإثنيات غير العربية داخل الأمة، ولا سيما في ذروة الهجمة

الأمريكية الصهيونية عليها، من شأنها دفع قوى الوحدة والتوحيد إلى تقديم نقاط التلاقي بينها على نقاط التجافي من أجل تغليب فرص التوحيد على محاولات التفريق والتبديد. فالإسلاميون وحدويون وتوحيديون بحكم العقيدة والثقافة، وسوف يستجيبون للدعوة إلى الوحدة والاتحاد والتضامن الصادرة عن القوى التي ترفع لواءها وخصوصاً قوى التيار العربي. ولعل أكثر ما يساعد في توليف مشروع استنهاض الأمة توافق قوى وفصائل عدة داخل التيارين على الأهداف الستة للمشروع النهضوي الحضاري العربي وهي: الوحدة، الاستقلال الوطني والقومي، الديمقراطية، التنمية المستقلة، العدالة الاجتماعية، والتجديد الحضاري.

إن توافر الإيمان والالتزام بهذا المشترك السياسي والحضاري من شأنه تعزيز مشروع استنهاض الأمة في سياق عربي إسلامي. يتأسس على ذلك، وجوب مبادرة قادة قوى التيارين العربي والإسلامي إلى الانطلاق من مصر، قاعدة الأمة شعبياً وسياسياً وحضارياً، إلى التوافق على برنامج وطني سياسي اقتصادي اجتماعي لبناء دولة مدنية ديمقراطية دستورية حديثة في مصر، تكون مثلاً وقدوة لسائر دنيا العرب. كما يقتضي أن يعيد القادة الشباب في التيارين النظر في المؤسسات التي كانت أقيمت في ظل النظام العربي الرسمي المنهار، وفي مقدمها المؤتمر القومي العربي والمؤتمر القومي الإسلامي ومؤتمر الأحزاب العربية. أليس أجدى وأفعّل لدعاة استنهاض الأمة أن تجتمع المؤتمرات الثلاثة في مؤتمر عربي عام يصبح وحده المؤسسة والآلية الاتحادية المساعدة على تشكيل الكتلة التاريخية المطلوبة لتحقيق الأهداف الستة للمشروع النهضوي الحضاري العربي؟

ثالثة المهام الإحاطة بأبعاد المخاض الذي يعصف بالعالم والاستفادة من تحولاته المؤثرة والمفتاحية. لعل أول هذه التحولات انتقال مركز الثقل في العلاقات السياسية والاقتصادية الدولية إلى آسيا، بل إلى الصين تحديداً، التي أضحت اقتصادها الأكبر في العالم، وكذلك احتياطها المالي بالعملة الصعبة وقدراتها الإنتاجية الهائلة. ثاني التحولات الأزمة المالية والاقتصادية المتفاقمة التي أنزلت الولايات المتحدة عن عرش وحدانياتها القطبية وقيادتها السياسية للعالم، وأكرهتها على التماس العون والمساعدة من دول عدة ناشئة وصاعدة، بالإضافة إلى الصناديق السيادية للدول العربية المنتجة للنفط. ذلك كله جعل الدولة العظمى أقل قدرة على الإيذاء، وأفسح في المجال لنشوء تعددية قطبية.

في موازاة هذه التحولات ونتيجة لها في آن، أطلت ظاهرة جديدة جوهرها اتخاذ حروب المستقبل شكل حروب بين تنظيمات مقاومة شعبية من جهة، وجيوش نظامية من جهة أخرى، وحتى بين تنظيمات شعبية مسلحة بمعزل عن وحدات نظامية. هذا ما توصل إليه خبراء وزارة الدفاع الأمريكية حول الدروس المستفادة من حرب ٢٠٠٦، كما نشرتها صحيفة واشنطن بوست بتاريخ ٤/٦/٢٠٠٩.

- ٤ -

إزاء صعود خيار المقاومة واعتماده نهجاً في الصراعات الدائرة في المنطقة، يقتضي أن يتدارس التياران العربي والإسلامي في منظور استراتيجي ويلتزمان مهمة استعادة مركزية

قضية فلسطين في الحياة العربية والإسلامية، واحتواء القوى السياسية المحلية التي تستخدمها الولايات المتحدة في سعيها إلى إحلال إيران محل إسرائيل في مرتبة الخطر الأول الذي يتهدد العرب في المرحلة الراهنة. ذلك أن تصحيح الفهم الاستراتيجي لحقائق الصراع وتحولاته يُسهم في تسريع استنهاض الأمة وحرمان التحالف الأمريكي - الصهيوني من تمويل حربه («الناعمة» أحياناً والفتنوية المذهبية أحياناً أخرى) على الأمة وقواها الحية بأموال العرب أنفسهم.

أجل، يقتضي أن تدرك قوى التيارين العربي والإسلامي حقائق الصراع لتفهم عالم اليوم بكل أبعاده وتحولاته. بذلك يصبح في وسعها الإسهام في تغييره وفي بناء نظام كوني جديد □

صدر حديثاً

العلاقات العراقية - الروسية (١٩٩١ - ٢٠١١)

علي محمد عيدان الجبوري

يتركز مضمون هذا الكتاب في تحليل العوامل الحاكمة لتطور العلاقات العراقية - الروسية، وكيف أثّرت في العلاقات بين البلدين من منظور المصلحة الوطنية، التي أصبحت تحقيقها هو المؤثر الأكبر في تطوير هذه العلاقات، وتحديد أهم العوامل الداخلية والخارجية الإقليمية والدولية المؤثرة في هذه العلاقات، ومن ثم تطور هذه العلاقات حتى العام ٢٠١١.

وسجل المؤلف في الخاتمة العديد من النتائج، وأهمها:

- أن غياب الموقف العربي الموحد تجاه القضايا العربية عموماً، والقضية العراقية خصوصاً، أدى إلى ضعف التزام روسيا في مواقفها.

- أن العلاقات العراقية - الروسية تتسم بصفة عدم التكافؤ، خصوصاً خلال مرحلة ما قبل الاحتلال.

- أن العراق يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبيئة الإقليمية المحيطة، وأن العلاقات العراقية - الروسية قد أصبحت محكومة بمتغيرين أساسيين: (١) هيمنة الولايات المتحدة على القرار العراقي؛ (٢) حجم وأهمية المصالح الروسية - الأمريكية مقارنة بالمصالح الروسية في العراق.

- أن استقرار العراق يشكل ركيزة مهمة للمصالح الروسية في منطقة الخليج العربي.



مركز دراسات الوحدة العربية

العلاقات العراقية - الروسية (١٩٩١ - ٢٠١١)

علي محمد عيدان الجبوري

٣٠٣ صفحة

الثمن: ١٣ دولاراً

أو ما يعادلها